ذلك يلقى في تابوت معتم وكأنه فارق الحياة، أو يترك على البلاط ينزف إلى أن تمارس طقوس التعذيب ثانية.

كما ليس سهلا أن يشبح في مجرى هواء بارد في فصل الشتاء ومروحة مسلطة عليه عارياً من الملابس، وبعدها تعريضه للماء الساخن وتكرار ذلك، وحشره في زنزانة مزودة بأجهزة تشويش، ومنها إلى حجرة مضاءة بمصابيح مضاعفة، واستمرار شبحه على كرسي مائل، واطئ، وقيد في قدميه وآخر يلف ذراعيه للخلف لمدة أيام وأيام إلى أن تأكل الحرارة ردفيه ويتسلل الخدر إلى زنديه والأوجاع إلى كتفيه وجذعه، أو أن تمارس فنون لي عنقه وتقويس ظهره وصفعات مدوية على أذنيه إلى أن تنزف ولا يصحو إلا بعد إغماءه تضعه على حافة الموت.

كل هذه الوسائل وسواها فشلت، نعم فشلت، في احناء الهامات الشامخة، ومثلما نجحت مع الكثيرين فقد أخفقت مع الكثيرين أيضاً.

ولكن مثل هذا التحدي العالي الذي يرقى إلى مستوى الاستعداد للموت، فمن لا يخشى الموت لا يخشى شيئا. كتب فوتشيك (إننا نحب الحياة، ولكننا مستعدون للموت في سبيل حياة كريمة). مثل هذا الاستعداد كيف يبنى، كيف يتحقق؟

«في فترة عملي في الثمانينات، لم يتوقف شحن الهمم وتصليب الإرادة. فقد تدارسنا بصورة جماعية «فلسفة المواجهة» و«بطولات» كما تعميمات ومقالات كثيرة، والرفاق طبعوا كتاب فوتشيك «تحت أعواد المشانق» وكتاب روجاس «أبداً لن نركع» وبعضنا كان يعرف عن تجربة الشيوعيين في سجون الأردن والعراق حيث سكب الزيت المغلي والزفتة على البعض ولكنهم لم يفرطوا...

وجيفارا الذي تحدى ضباط «السي. أي. ايه» بعد أسره وقد أصيب برصاصات غادرة، قوة مثال، كما الشيخ عز الدين القسام الذي حاصرته قوات الاحتلال البريطاني في جبال يعبد وقال قولته الشهيرة: «هذا جهاد نصر أو استشهاد»، قوة مثال أيضا، وعبد القادر الحسيني الذي خذلته الأنظمة العربية فاختار الاستشهاد في معركة القسطل. كنا مشربين بقوة المثال ونرى قيادتنا أمامنا. إذ بعد أن اعتقل مسؤولي وصمد لم يعد لي عذر، إذ كيف أواجهه أو أواجه عائلته التي ترحب بي مطأطئ الرأس؟! الأمور كانت عكس ما هي عليه الآن. لا يجب الظن أن هذه الحال كانت حال الجبهة الشعبية»، إن ما يذكرنا بما كنا عليه هو سلوك أحمد سعدات وعاهد أبو غلمة وأمجد الريماوي سواء في لحظة اختطافهم من سجن أريحا أو صمودهم بالزنازين...